وقل رب زدني علما

جامعة دمشق

المحاضرات العامة

في العام الجامعي ١٩٥٨ — ١٩٥٩

٦

القرآن عربي الخطاب إنساني الرسالة

الاستاذ محمد المبارك
عميد كلية الشريعة

محاضرة القيت على مدرج جامعة دمشق
مساء الاثنين ٢٣ آذار ١٩٥٩

مطبعة جامعة دمشق
١٩٥٩

وقل رب زدني علما

جامعة دمشق

المحاضرات العامة

في العام الجامعي ١٩٥٨ — ١٩٥٩

٦

القرآن عربي الخطاب إنساني الرسالة

الاستاذ محمد المبارك

عميد كلية الشريعة

محاضرة القيت على مدرج جامعة دمشق

مساء الاثنين ٢٣ آذار ١٩٥٩

مطبعة جامعة دمشق

١٩٥٩

ب ١ ٢

القرآن عربي الخطاب إنساني الرسالة

للاستاذ محمد مبارك

عميد كلية الشريعة

مناسبات عديدة تجعل هذا الموضوع من موضوعات الساعة ، على ان القرآن هو القديم الذي لا تبلى جدته ولا تزول على الايام نضارته . واولى هذه المناسبات أن شهر رمضان يعيد ذكرى تنزل الكتاب الكريم حين كانت تتنزل آياته غضة على قلب الرسول العظيم صلوات الله عليه وتنتقل الى نفوس اصحابه فتفعل فيها فعل السحر الى ان انتهت الى ثورة كبرى في العقائد والمفاهيم والقيم والنظم .

وثاني هذه المناسبات ان العرب في هذا العصر بعد أن مروا بمراحل اليقظة والوعي لارضهم ثم لقوميتهم وصلوا الى المرحلة التي يتحررون فيها كذلك من نفوذ المبادىء الاجنبية من ديمقراطية الرأسماليين المزعومة الى مادية الشيوعيين ، وبذلك بلغوا مرحلة الوعي لمبادئهم واصبحوا بحاجة لملء الفراغ الحادث بطرد الافكار والفلسفات الاجنبية . وانهم اليوم على مفترق الطرق يخشى عليهم العثار اذا لم يستقوا من النبع الاصيل الذي التقت فيه فطرتهم الانسانية ووحي السماء او فيض القدرة الإلـهية التي تجلت في الكتاب العربي المعجز . ولكن بيننا وبين الكتاب العربي المبين حجباً كثيفة بنتها العصور والعادات والافهام الغريبة حتى اصبح الكتاب الذي اقام في العالم ثورة شاملة لجميع نواحي الحياة اورادا تتلى والفاظاً تلتمس نتائجها بمجرد التلاوة .

ولنستطيع فهم القرآن فهما عميقاً يتجاوب مع نفوسنا يجب ان نبعث الجو العربي الذي نزل فيه ونتقمص نفسية العربي القديم ونقف حيث وقف ونعيد التجربة حية في نفوسنا ،لا أقصد تجربة الوحي فقد انقطع الوحي بانتقال الرسول الكريم ﷺ ، ولكن تجربة التلقي والتجاوب النفسي لتكون تجربة حية . ان هذه التجربة يجب ان تبدأ منا ثم تنتقل الى غيرنا لان القرآن نزل بلغتنا .

ان تميز الامم بالارض او العرق لم يعد مميزاً يتناسب مع ارتقاء الامم وتقدمها وسيرها نحو الانسانية ولم يعد مقبولاً من الوجهة الاخلاقية وهو تميز اقرب الى الابتدائية .اما المميز الحقيقي فهو الروح المعنوية والصيغة الانسانية والمبدأ والعقيدة؛ ويقاس رقي الامم بمقدار ما تحقق في نهضتها من مبادىء انسانية وبمقدار اتساع مداها الحيوي في المجال الانساني وبمقدار تقدمها نحو الهدف الانساني . فاذا اردت ان تقارن بين الروس والامريكيين والانكليز والعرب فقارن بين الفهم المادي الجاف للروابط الانسانية في المادية الماركسية والسلوك النفعي العملي للديمقراطية الامريكية والاستعلاء العنصري المستخفي وراء الديمقراطية البريطانية والمثالية الانسانية المتجلية في الاسلام كما فهمه العرب ودانوا به .

ان العرب يرون في القرآن المنبع الاصيل والمنهل الصافي ومجمع القوى المختزنة الكامنة التي تفجر في انفسهم انسانيتهم وتبعث روح الجهاد في سبيل تحقيقها ولذلك كان دوماً هدف الشعوبيين اعداء العرب والمبادىء الانسانية ، وكانت خطتهم في العصور القديمة وفي عهود الاستعمار الحديث اقصاء العرب عن القرآن ومفاهيمه وتغطية ذلك بستار العلمانية او التقدمية او التحرر ، ولكنه التحرر من الذات والانسلاخ من الجلد وانتحار الانسان بيده . ذلك ان القرآن بالنسبة الى العرب معدن الاصالة ومصدر التجديد المتصل بالماضي والمستند الى الانسانية الصحيحة والمستمد من مصدر الوجود .

لقد كان للقرآن ولا يزال اثر عالمي ولذلك فان العودة الى فهمه فهماً صحيحاً واعادة تجربته النفسية سيكون لها من جديد تأثير عالمي وسيكون لذلك اثر حاسم في تاريخ الحضارة ونتيجة هامة في صراع المبادىء والمذاهب وهذا الدور الحاسم انما يقوم به العرب انفسهم وهم اقوى من غيرهم على القيام به كما كانوا بالامس . وان منعهم عن القيام بهذا الدور الحاسم وفصلهم عن تجربتهم القرآنية الحية ، ان كان من الداخل فهو خيانة قومية ، وان كان من الخارج فخيانة للانسانية وتقدمها .

ان دور العرب في فهم القرآن وتفهيمه ومسؤوليتهم في ذلك تأتي من كون القرآن عربي اللغة والخطاب . وأثر القرآن العالمي ودوره في توجيه الحضارة وربط الامم بعضها ببعض يأتي من كونه انساني المبادىء والتعاليم ، ولذلك كان من الضروري ليعود القرآن الى القيام بدوره في حياة العرب اولا وفي العالم ثانياً فهم هاتين المسألتين :

١ — القرآن عربي الخطاب

ونقصد بذلك انه عربي في لغته وطريقة خطابه ، لا انه توجه في خطابه الى العرب وحدهم . فقد وصف القرآن بكونه عربياً في عدد كثير من الآيات :

(وكذلك انزلناه قرآناً عربياً) (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) (انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) (وكذلك اوحينا اليك قرآناً عربيا) .

ومعنى ذلك ان القرآن من حيث الفاظه وتراكيبه ، ومن حيث اساليبه

البيانية وطرائقه في التعبير عن المعاني يسلك مسلك العرب . ولذلك كان الاعتماد في فهمه على لغة العرب وعلى طريقتهم في اداء المعاني في كناياتهم ومجازاتهم واشاراتهم وقصصهم وامثالهم والاعتماد في تفسيره انما يكون على الفهم العربي .

قال الامام الشاطبي في كتاب الموافقات : « ان القرآن نزل بلسان العرب على الجملة فطلب فهمه انما يكون من هذا الطريق خاصة لان الله تعالى يقول : (انا انزلناه قرآنا عربيا) وقال (بلسان عربي مبين) وقال (لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين) . فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم ولا سبيل الى تطلب فهمه من غير هذه الجهة) . وقال ايضاً : «انه انزل على معهود العرب في الفاظها الخاصة واساليب معانيها » . وقال « انه لابد في فهم الشريعة من اتباع معهود الاميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم فان كان للعرب في لسانهم عرف مستمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة»[١].

ويتضمن عنصر اللغة هذا الفاظ اللغة ومفرداتها، وللالفاظ في كل لغة مدلول ومفهوم يتصل بحياة أهلها، ويعجبني قول أحد علماء الهند في تحديد مفهوم (الحق) و (الصبر) عند العرب في تفسيره لسورة العصر حيث قال :

« واعلم ان الصبر عند العرب ليس من التذلل في شيء كما يصبر المضطهد العاجز بل هو أصل القوة والعزم وكثر في كلام العرب استعماله بهذا المعنى قال حاتم الطائي :

وغمرة موت ليس فيها هوادة ... يكون صدور المشرفي جسورها
صبرنا له في نهكها ومصابها ... باسيافنا حتى يبوخ سعيرها

---

(١) ج ٢ ص ٦٤ .

وقال الاصبغ :

يابن الجحاجحة المداره والصابرين على المكاره

وهذا كثير وفي القرآن بيّن معنى الصبر حيث قال تعالى : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » فذكر من مواطن الصبر الفقر والمرض والحرب وذلك أصول الشدائد وكذلك الصبر عند نزعات النفس على أذى الناس كما مر بك في قوله تعالى ولمن صبر وغفر »[1].

وتشمل اللغة التراكيب وأنواع التعابير والصور وهذه يجب أن تفهم كذلك فهما عربياً فلكل لغة تراكيبها الخاصة ولكل أمة تشابيهها وصورها ومجازاتها ومقاصدها في كلامها؛ وكثيراً ماأدى سوءفهم التعابير العربية والتشابيه والمجازات في عصور الفهم الاعجمي للقرآن الى مذاهب منحرفة وتأويلات باطلة أخرجت القرآن عن نهجه القويم وفهمه العربي الصحيح . ذلك ان اللغة تخفي وراءها عادات أهلها والصور التي الفوها والمفاهيم التي تصوروها ولذلك كان من وسائل فهم القرآن الضرورية كما قال الشاطبي « معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل » ويقول الشاطبي موضحاً ذلك ببعض الأمثلة : « قوله تعالى يخافون ربهم من فوقهم وقوله أأمنتم من في السماء واشباه ذلك انما جرى على معتادهم في اتخاذ الآلهة في الارض وان كانوا مقرين بإلهية الواحد الحق فجاءت الآيات بتعيين الفوق وتخصيصه تنبيهاً على نفي ماادعوه في الارض فلا يكون فيه دليل على اثبات جهة البتة.[2] » ويستنتج من ذلك ان « كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم

---

(١) كتاب امعان في اقسام القرآن لعبد الحميد الفراهي .

(٢) ج ٣ ص ٣٥١ .

القرآن في شيء »[١] وحينما يناقش التفسير بالرأي ينتهي الى القول بجوازه بشرط ان يكون جاريا على موافقة كلام العرب وموافقة الكتاب والسنة ويعقب الشاطبي ذلك بذكر أمثلة من التفسيرات الباطنية التي خرجت عن الفهم العربي للقرآن . ولذلك يجعل مصادر تفسير القرآن السنة وتفسير السلف الصالح ان لم توجد السنة « فانهم اعرف به من غيرهم والا فمطلق الفهم العربي لمن حصله يكفي فيما اعوز من ذلك »[٢].

وليست اللغة العربية من حيث مفرداتها وتراكيبها وحدها هي مصدر تفسير القرآن بل ان معرفة عادات العرب وبيئتهم التي كانوا يعيشون فيها ضرورية لفهم الكثير من آيات القرآن ، فعاداتهم واحكامهم قبل الاسلام منها ماأقره القرآن ومنها ماأبطله ونهى عنه .

قال الشاطبي : « ان العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الاخلاق واتصاف بمحاسن شيم فصححت الشريعة منها ماهو صحيح وزادت عليه وابطلت ماهو باطل » « وكان للعرب أحكام عندهم في الجاهلية أقرها الاسلام »[٣].

هذا وقد تضمن القرآن أمثلة توضح مبادئه العامة وشواهد تبين قواعده الكلية وبراهين تؤيد عقائده وقد روعي في هذه الامثلة والشواهد والبراهين ان تكون مما يألفه العربي ويفهمه .

قال الشاطبي « لم يكتف بذلك حتى خوطبوا بدلائل التوحيد فيما يعرفون

---

(١) ج ٣ ص ٣٩١ .
(٢) ج ٣ ص ٣٦٩ .
(٣) ج ٢ ص ٧١ و ٧٨ .

من سماء وارض وجبال وسحاب ونبات وبدلائل الآخرة والنبوة كذلك ...

« واخبروا بما انعم الله عليهم مما هو لديهم وبين ايديهم واخبروا عن نعيم الجنة واصنافه بما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا ... وبيّن من مأكولات الجنة ومشروباتها ماهو معلوم عندهم كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والاعناب وسائر ماهو عندهم مالوف دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الارياف وبلاد العجم بل اجمل ذلك في لفظ الفاكهة .

« وقد كانوا عارفين بالحكمة وكان بينهم حكماء فأتاهم من الحكمة بما عجزوا عن مثله ولم يجادلهم الا على طريقة مايعرفون من الجدل »[١] .

ويرى الشاطبي ان كون القرآن معجزاً لايخرجه عن كونه عربياً جاريا على اساليب كلام العرب ميسراً للفهم[٢] .

ان كل ما ذكرناه من الامثال والشواهد والتشابيه والقصص واساليب الكلام ليست الا وسائل لمقاصد القرآن الاساسية واهدافه كالايمان بالله والحياة الآخرة ومسؤولية الانسان وحسابه ، وقد روعي في هذه الوسائل حال المخاطبين وكانوا عربا ، واما مقاصد القرآن واهدافه الكبرى فهي عامة غير خاصة تعم جميع الامم وتصلح لكل الناس .

ولكن هذه الاهداف لا بد من افهامها للمخاطبين لينقلوها الى غيرهم ولهذا كان البدء بهم قال الله تعالى : (وانذر عشيرتك الاقربين) وقال (لتنذر ام القرى ومن حولها) وقد من الله عليهم بان اختار منهم رسوله الى الناس كافة في قوله : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم

---

(١) ج ٢ ص ٧٨ و ٧٩

(٢) ج ٣ ص ٣٤٦ .

آياته » . (آل عمران) وقوله «هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم» . (الجمعة)

والاميون هم العرب كما عليه أكثر المفسرين في مقابل أهل الكتاب ولذلك جعل العرب حين خاطبهم القرآن الكريم مسؤولين عن حمل رسالته الى الناس فقد جاء في القرآن الكريم : « انا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون » (الزخرف)

ولا يستقيم المعنى الا بان يكون الخطاب موجهاً لهم وقد ورد في آية اخرى في السورة نفسها قوله تعالى (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وقد بين ابن كثير في تفسيره ان المراد بقومه في الآية هم العرب ومن مجموع الآيتين تبدو مسؤولية العرب في التبلغ والتبليغ والتذكير وهذا التخصيص لا ينافي التعميم كما قال الشاطبي فان المبادىء والقواعد التي جاء بها القرآن عامة تصلح للبشر جميعاً ويستطيع كل من فهمها وتبلغها ان ينقلها الى غيره ويبلغها وينشرها وان كان العرب في ذلك اثقل حملا واكثر مسؤولية وكذلك هم في تقصيرهم اشد وزرا .

٢ — القرآن انساني الرسالة

واما ماتضمنته رسالة القرآن من اهداف وغايات فهي انسانية عامة فالعقائد التي يدعو اليها والمبادىء الاخلاقية التي ينادي بها والنظم التشريعية التي يعلنها كلها انسانية عامة ، فالاله ليس إله قوم او قبيلة او شعب وانما هو رب العالمين ، خالق السموات والارض ، والرسول هو رسول الله الى الناس جميعاً لا الى جماعة أو قوم (قل ياأيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً) (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا)

(وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)؛ **والناس كلهم** عباد الله، خلقهم ذكرا وانثى وجعلهم شعوبا وقبائل؛ **والانسان** كما صوره القرآن ليس هو الانسان العربي او الاعجمي والقرشي أو اليماني وانما هو الانسان في خلقته الاولى، الذي خلقه الله من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، الذي يخرج طفلا ثم يكبر حتى يرد الى ارذل العمر هو الانسان الذي انشأ له السمع والابصار والافئدة والذي حببت له شهوات الدنيا « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومه والانعام والحرث » هو الانسان الذي الهاه التكاثر واحب المال حباً جماً؛ وحياته الواقعية هي التي وصفها القرآن بقوله : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد)؛ **والمجتمع الانساني الذي** وصفه القرآن في صورته الواقعية ليس هو المجتمع العربي في زمن معين وانما هو المجتمع الانساني بوجه عام واليك بعض هذه الصور الاجتماعية الواقعية :

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » .

« فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » .

« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين » .

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالو الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم

وساءت مصيرا الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون
حيلة ولا يهتدون سبيلا » .

« فكأين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة
وقصر مشيد افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان
يسمعون بها فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

« واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول
فدمرنا تدميرا . »

وكذلك صورة المجتمع المثالي الذي يرسمه القرآن انسانية عامة :

« ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
واولئك هم المفلحون » .

« الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف
ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » .

وان النظام الاخلاقي والتشريعي الذي اقامه على اساس عقيدته ونظرته العامة الى الله والوجود قد احتوى المبادىء العامة التي لا تختلف من شعب الى شعب كالشورى في الحكم (وامرهم شورى بينهم) واداء الامانة واقامة العدل (ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) ومبدأ التعايش والتعارف والتعاون :

« ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »
« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

ومبدأ تعايش الاديان وعدم الاكراه في العقيدة :

« لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

وقد عرض القرآن المبادىء العامة للسلوك في شتى نواحي الحياة وهي كثيرة جدا كقوله :

« ولا تنازعوا فتفشلوا » .
« ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة »
« ولكم في القصاص حياة » .

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » .
« ولا تمش في الارض مرحا »
« ولاتزر وازرة وزر اخرى » « وان ليس للانسان الا ماسعى »
« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »

وان مبادىء إقامة العدل ومنع الظلم واتباع الحق وفعل الخير والتعاون والاحسان وغيرها منثورة في القرآن ، معروضة في صورتها العامة ومفهومها الانساني الشامل .

وتعرض القرآن لجميع قيم الحياة وحدد موقفه منها وهي القيم التي يواجهها الناس في كل العصور وجميع المجتمعات البشرية ، وتقيم عليها المذاهب الفلسفية والخلقية بناءها ؛ ومن امثلة ذلك ماورد في هذه الآية التي جمعت اهم القيم ذات التأثير في الحياة وهي القرابة والنسب والمال والتجارة والمسكن والارض مع بيان موقعها من المثل الاعلى المتجلي في حب الله والجهاد في سبيله « قل ان كان

آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بامره ».

لقد اثار القرآن اهم مشكلات الانسان بل قضاياه الكبرى وفي مقدمتها **المسؤولية ومصير الحياة** (ايحسب الانسان ان يترك سدى) (افلا يعلم اذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور) (ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه بل يريد الانسان ليفجر امامه يسأل ايان يوم القيامة ».

انها قضية الانسان الكبرى ، انه قلق المصير والتفكر في نهاية الحياة اللذين اثارهما القرآن في النفس ومن وراءهما المسؤولية العظمى؛ لقد تجاوز القرآن حدود الامور المحلية والزمنية ، حدود البيئة التي نزل فيها والعصر الذي ظهر فيه وحلق فوقها حتى كشف آفاق حياة الانسان بل آفاق الوجود وقلما تجد في القرآن اسماء اعلام لاناس او لبلاد اللهم الا مايكون في القصص التاريخي حتى ان الصورة التي اعطاها عن **الكون والطبيعة** واجزائها وان كانت صورة ليست غريبة عن العرب ولكنها عامة غير خاصة فلا ترى في القرآن كما في الادب الجاهلي الصحراء والناقة حيثما توجهت بل قلما تجد فيه هاتين الصورتين بل انك لترى صورة البحر والفلك مواخر فيه اكثر منها :

« وهو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

« ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها » .

ثم استمع وتخيل هذه الصورة الكثيفة الجامعة :

« ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون ».

هذه هي الطبيعة العامة التي نجدها في كل مكان في شمسها وقمرها ، وليلها ونهارها ، وبرها وبحرها، ونباتها وثمارها ، وانسانها وحيوانها .

ان غاية القرآن، الذي يمثل آخر الرسالات، ايقاظ ضمير الانسان وربطه بخالقه واشعاره بمسؤوليته وتحريره من الجزئيات ليسير في مبادىء واتجاهات ، واقامة نظام لحياته وسلوكه يستقيم عليه امره تستقر فيه العدالة وتتأمن الحرية ويتعاون البشر على اختلاف اجناسهم واقوامهم .

لقد اشعر القرآن العرب بانسانيتهم ، ليشعروا هم غيرهم بها وجعل الرابطة بينهم اولاً ثم بين الناس جميعاً هي الرابطة الانسانية لا رابطة النسب والعصبية والدم ولا رابطة المال .

ونقلهم من اطار الصحراء والقبيلة الى اطار الكون والانسانية ومن مظاهر حياتهم الى اغوار انسانيتهم والى آفاق الوجود الرحبة الواسعة وبذلك استطاعوا ان يطلوا على الانسانية جميعاً من هذه الذرى العالية .

وان هذا القرآن الذي تضمن نظرة شاملة للحياة والوجود مبنية على الاتصال بخالق ابدي منه البداية واليه المرجع والمآل وعلى مسؤولية الانسان عن عمله

واشتمل على مبادىء اخلاقية ونظام تشريعي مبني على المساواة والعدالة ان هذا القرآن الذي تضمن هذه الدعوة الانسانية لم يبدأ بالعرب لينتهي عندهم أو ليقيم تشريعاً على اساس التمييز العنصري وهو الذي دعا الى المساواة بين البشر قبائل وشعوبا ولكنه ابتدأ بهم ليحملهم امانة ثقيلة واختارهم الله لتبليغ رسالة عامة للبشر وليجعل منهم امة معلمة مرشدة تقود الناس الى الحق وتهديهم الى الخير وتدعوهم الى هذا الصعيد الانساني المشترك. لقد كان الشرف العظيم الذي اناله الله العرب ان يكون الرسول الانساني العظيم منهم وان يحملوا الرسالةالتي انتهت عندها الرسالات وان يجعل الله لغتهم العربية لغة هذه الرسالة الانسانية حتى اصبح بين القرآن والامة العربية ولغتها صلة لاتنفصم ورابطة لاتنحل هي الصلة بين **رسالة انسانية وامة مبلغة ولغة معبرة** وان اهمال ماللعرب من موضع خاص في بناء الاسلام، في فهم كتابه وتنفيذ مبادئه، وما للغتهم من منزلة في فهم القرآن، جهل بالاسلام وتاريخه واضعاف للقاعدة التي يرتكز عليها كما ان فصل العرب عن رسالة القرآن ومفاهيمه هو فصلهم عن تاريخهم وعن روحهم المتأصلة وينبوعهم الاصيل وتشويه وبتر لشخصيتهم ورجوع بهم عن مرحلة الرسالة الانسانية، رجوع الى مراحل خلفوها وراءهم ولاتزال كثير من الامم الراقية واقفة عندها، ولا يفعل هذا الا جاهل معرق في الجهل او شعوبي حاقد.

وخلاصة القول ان القرآن في مبادئه ومثله يخاطب الناس جميعاً ويتوجه الى البشرية على مر العصور فهو كتاب الانسانية المعجز وهو في الوقت نفسه كتاب العرب الخالد الذي يصلهم من جهة بالانسانية ومبادئها ويصلهم من جهة اخرى بالله الخالق الحكيم الذي «انزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» فالقرآن **الهي في مصدره انساني في مبادئه ورسالته عربي في خطابه وتعبيره.**

١٩٥٩/٣/٢٣